المستوى الصحى بعد مكافحة الأمية

للدكتور وهبه محمود القاضى

كانت مكافحة الأمية فكرة حائرة ، تجىء فتذهب وتذكر فتنسى ، وكانت كلما بدت حاربها قوم إشفاقا على أنفسهم من نتائجها ، واعتنقها نفر لم تمكنهم قلتهم وضعف وسائلهم من تحقيقها ، حتى قيض الله لها من خرج بها على الناس تشريعا واجب الاحترام والتنفيذ ، ومن يعدّ لها أو أعدّ لها فعلا وسائل التكوين والتحقيق ، فما هى إلا أيام قلة حتى نرى رسل التعليم تشهرها حربا لا هوادة فيها على الأمية فى كل ناحية من أنحاء البلاد .

عمل جليل ، أجل منه أن الذين قاموا به علموا قبل أن يعملوا مدى الثورة الاجتماعية التى ستعقب ما عملوا ، فما غاب عنهم أن زوال الأمية سيهدم كثيرا من الفوارق الاجتماعية فى البلاد ، ولا غاب عنهم أن الفلاح سيختلف نظره إلى كوخه ، وأن الصانع ستتغير فكرته عند كوره ، وأن الجوعان سيعلم أن فى الحياة شبعا ، وأن العطشان سيعلم أن فى الحياة ريا ، وأن الجميع سيطلبون من المجموع أن يهيئ لهم ما يستحقون كأفراد وجماعات منه .

وقد يؤخذ قولى هذا على أنى أصوغ للمهيمنين على أمور وزارة الشئون الاجتماعية حمدا . وما يضيرنى هذا ؛ ان أقولها إلا حقا وللحق الصراح ، فنى الله وفى الوطن جرأتهم وإقدامهم رغم ما يعلمون ، فقد رأوا أن يعرف الحق صاحبه فيطلبه ، والواجب المنوط به فيؤديه ، وأن تستنير العقول فلا ضالة رائجة ، ولا تعمية سائدة ، ولا جهل مستغل ، ولا أمية تركب تحت ستارها الجرائم بأنواعها ، ولا ضحايا للجهل بأسباب الصحة وسبل الوقى حين رأوا أن يقرأ الجميع ، فيفيد الجميع مما يقرءون .

فلتزر قرية من القرى المصرية ، تلك الكتل من الطين التى فى تعاريجها آدميون ولا آدميون . ولتدخل جحرا من جحورها ، وقد اصطلح على تسميته بيتا يسكنه الرجل وامرأته وأولاده ودابته ، سترا ولا هواء فيه ولا نور ، ذلك لأن الشائع هناك أن الشمس متلفة والهواء يؤذى والنوم فوق فرن أحسن إحماؤه فى قاعة أحكم إقفالها هو ضمان الصحة والعافية... هل تبقى هذه القرية كما هى بعد زوال الأمية ؟ يقينا لا ... سيصل إلى علم هؤلاء القوم من أيسر السبل — وهو القراءة — ان فى الشمس والهواء حياة وقوة ، وأنهما العدو الطبعى لجراثيم الامراض ومسبباتها ، وسيصل الى علمهم كذلك أن فيما درجوا عليه من نوم فى أمكنة مقفلة على الوجه الذى أسلفت سعيا حثيثا للرض بأمراض الصدر ، وفى مقدمتها السل ، عند ذلك سيعدلون قريتهم وأبنيتها ، ويختارون بأنفسهم ، لا بقوة القانون ، النظام الصحى لبناء القرية المصرية .

سيصل الى علم هؤلاء من هذا السبيل نفسه أن فيما اعتادوه من التبوّل أو قضاء الحاجة فى مجارى الماء من ترع وغيرها وفوق الجسور ، اكثارا لجراثيم الأمراض المتوطنة مثل الأنكلستوما والبلهارسيا ، ومساعدة لها على الانتشار . عند ذلك سيحاولون أن يقلعوا عن هذه العادات السيئة ، فيكون فى ذلك عون لأولى الأمر على محاربة هذه الأمراض محاربة مجدية .

وسيصل الى علم هؤلاء القوم كذلك أن صيدلية القرية الحاضرة ومدّعى الطب فى القرية الحاضرة هم قتلة لهم لا رسل شفاء كما يتصورون ، سيعلمون مما سيقرءون مثلا أن لحم الفسيخ لا يشفى مريض التيفود بل يميته ، وأن لبخة جلد الفسيخ على العين لا تشفيها بل تعميها ، وأن إلقاء المريض بالملاريا فى الترع عند صلاة العصر لا يبرئه بل يقضى عليه ، وأن الكى وغيره مما لا حصر له جنايات على المرضى ، والجناة هم أهلوهم ، وأن الخير كل الخير فى أن يذهب مرضاهم الى الأطباء والمستشفيات للعلاج علاجا ناجعا ، ولن يكافئهم ذلك شيئا مذكورا .

سيصل الى علم هؤلاء من طريق القراءة أن فى إخفاء المريض بمرض معد خطرا عليهم وعلى قريتهم ، بل على بلادهم بأسرها . ورب قائل : لقد وصل هذا كله الى علم هؤلاء عن طريق الدعاية التى تقوم بها وزارة الصحة ، ولكن هذا القول مردود عليه ، بأن ميزانية الدولة بأجمعها ، لا تكفى للدعاية بين القرى جميعا ، دعاية تستريح إليها نفوس ، أهلها وترتاح فى عقولهم وتطمئن إليها قلوبهم . أما تعليم القراءة والكتابة ونشر الثقافة الشعبية فسينشئ جيلا جديدا لا يكاد يشب عن الطوق حتى يفتح عينيه على مقاصد هذه الدعاية ويفهمها بينه وبين نفسه لأنها ستمر عليه فيما يقرأ أو يسمع مرارا وتكرارا فتصبح عنده مع الزمن أمرا مألوفا سائغا . بل أمرا يشق عليه مخالفته .

هذا هو الأثر الصحى لزوال الأمية فى القرية .

وليس أثر مكافحة الأمية فى المدن بأقل منه فى الريف . فالجهل ضحاياه العديدون . كذلك فى المدينة ، وفيها من الخرافات الشائعة الخطرة على الصحة العامة ومالا حصر له .

جهدت وزارة الصحة وقوانينها فى محاربة أدعياء الطب فى المدن ، ومع هذا فما زال أدعياؤه يثرون على حساب الضحايا البؤساء . لماذا ... ؟ لأن القوانين تكسب قوتها من تنفيذ الشعب لها ومن معونته للقائمين بتنفيذها ، والجهل يقلب أوضاع الأمور . وهانحن حتى اليوم — ورغم ازدياد عدد الأطباء والمستشفيات — لا نزال نرى الكثيرين يهرعون إلى الأطباء الروحانيين ومدّعى الطب وهم أفتك بالناس من الأمراض نفسها .

ولكم جهدت وزارة الصحة ودعاتها ومفتشوها فى بيان الأخطار التى تترتب على تعريض الأطعمة التى تباع ، من نشر للأمراض وتسميم للأجسام، ومع هذا فلا يزال فى الحوارى والطرقات باعة جل بضاعتهم ذباب ، وهم مع ذلك يجدون لها المشترين .

ومرت السنون الطوال والدعوة تتكرر يوميا وبشتى الطرق للإقبال على التطعيم بالأمصال الواقية بلا مقابل ، ومع ذلك تجد المتخلفين والذين يدعون أنه يضر ولا يفيد .

لم يكن هذا لقصور الدعاية ولا لتقصير فى الجهد ، ولكن استعداد النفوس للقبول والإيمان بالفائدة قليل ، لأن دائرة الفكر ضيقة وسلطان الجهل باسط لواءه . ولا يخرج بالفكر عن دائرته الضيقة إلا الاطلاع، ولن يكون الاطلاع مع الأمية، فإذا ما دالت دولتها وتداعى سلطان الجهل أخذت النفوس تتهيأ لقبول كل ما كانت تعاقه من قبل من النصائح والارشادات .

وما أستطيع أن أختتم كلمتى قبل أن أتعرض للأثر المحقق لمكافحة الأمية فى تيسير فهم الدين ونبذ الخرافات المتعددة الحائمة حوله ... لقد أوصت الأديان السماوية كلها بالنظافة ولهذه أثرها البالغ فى الصحة العامة .

كما اتفقت جميعا على النهى عن تعاطى الخمر وإدمان المخدرات ولست فى حاجة إلى بيان ما لهذين من جنايات على المستوى الصحى .

وتبرأ هذه الأديان قاطبة من المشعوذين الذين يتخذون من مظاهر الصلاح تجارة ومن عقيدة البركة سبيلا للرزق فيدعون بالطب علما ويجدون الكثيرين الذين يهرعون اليهم طلبا للشفاء ، وليت هؤلاء المرضى يعلمون أن من طلبوا الشفاء عندهم جلبهم أحوج إلى العلاج منهم وليتهم يعلمون أن تلك اللسة أو ذلك اللعاب الذى يعتبرونه ترياقا أكثر ما يكون مجلبة للداء ولا يمت بسبب إلى الدواء ، فكم تقل السل أو الزهرى إلى برىء منه ، جرائم يحميها الجهل ويساعد على ارتكابها سوء الفهم، فاذا استنارت العقول ووسعت القراءة مدى المدارك لم يجد هؤلاء المشعوذون من يسعى اليهم بل لوجدوا من يرجمهم إن سعوا إليه .

هذا شىء مما يتبع مكافحة الأمية من أثر فى الصحة العامة ، ووفق الله القائمين بأمر هذا المشروع ، ووفق الشعب إلى معونتهم فيما قصدوا إليه من إسعاده وهدى الكل إلى ما فيه خير مصر .

دكتور

وهبه محمود القاضى